الفصل الثاني

«موضوع التكاليف الإلهية في قصة (إبراهيم) عليه السلام»

لقد تناول الشعراوي موضوع التكاليف الإلهية في قصة إبراهيم – عليه السلام – من خلال خواطره التي تناولت سورة الأنعام، وذلك حين شرحه لقول الله تعالى: (وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ)[1] التي تناول الشعراوي من وحيها موضوع تنفيذ التكاليف الإلهية، وعلاقتها بالعطاءات الإلهية للمكلفين حينما يصدقون في تنفيذ أوامر الله تعالى، فأوضح أنَّ من يلتحم بالمنهج الإلهي، وينفذ تكاليفه بصدق وإخلاصٍ وصبر على القيام بها، رغم مشقتها على الأنفس، فإنه يفتح لنفسه باب العطاءات الإلهية، كما حديث لسيدنا إبراهيم عليه السلام، الذي التحم بمنهج ربه، والتزم تنفيذ تكاليفه بوفاء وإخلاص وصبر، فكانت النتيجة الآية السابقة، والتي تشير بفتح الله تعالى (لإبراهيم) عليه السلام، وذلك بإطلاعه على أسرار الملكوت، ثم أشار الشعراوي إلى أنَّ هذا أيضًا طريق كل مُكَلَّف يُحْسِن ويُخْلِص في تنفيذ التكاليف الإلهية.

---

[1] سورة الأنعام، الآية: ٧٥.

ولقد عالج الشعراوي هذا الموضوع من خلال العناصر الآتية:

(أ) تعريف الشعراوي للملكوت وتسجيل القرآن الكريم التحام إبراهيم - عليه السلام - بالمنهج الإلهي.

(ب) العلاقة بين تنفيذ المُكَلَّف للتكاليف الإلهية والاطلاع على عالم الملكوت.

(ج) تناول الشعراوي لصبر إبراهيم على مشقة التكاليف الإلهية من خلال النص القرآني.

(أ) تعريف الشعراوي لكلمة الملكوت، وعرضه لما سجله القرآن من التحام إبراهيم بالتكاليف الإلهية:

لقد استهل الشعراوي هذا الموضوع بتوضيحه لكلمة الملكوت[1]. يقول: «والملكوت صيغة المبالغة في الملك، مثلها مثل «رحموت»، وهي صيغة مبالغة من الرحمة، والملكوت تعطينا فهم الحقائق غير المشهودة، فالذي يمشي وراء الأسباب المشهودة له يأخذ الملكوت؛ لأن ما يشهده ويحسه هو أمامه، والملكوت هو ما يغيب عنه، إذن ففيه

[1] «والملكوت بمنزلة الملك، إلا أنَّ الملكوت أبلغ في اللغة من الملك؛ لأنَّ الواو والتاء تزدان للمبالغة، ووزنه من الفعل فعلوت...»، الزجاج، معاني القرآن وإعرابه، ج٢/ص٢٦٥.

«ملك» وفيه «ملكوت» الملك هو ما تشاهده أمامك، والملكوت هو ما وراء هذا الملك»[1]

ثم استحضر الشعراوي مثالًا لتوضيح ذلك من خلال النص القرآني متمثلًا في أحد المواقف التي تكلم فيها سيدنا إبراهيم – عليه السلام – عن الشركاء لله تعالى. يقول الشعراوي: «والمثال هو ما قاله سيدنا إبراهيم حينما تكلم على الشركاء لله – تعالى – قال سبحانه: (فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ (٧٧) الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (٨٠) وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ)[2]»[3]

فيحلل الشعراوي مقالة سيدنا إبراهيم – عليه السلام – ليصل منها إلى اتصال إبراهيم – عليه السلام – مباشرة بعالم الملكوت، ونجد كذلك من سياق كلام الشعراوي دعوة جمهوره بألا يقفوا عند الأسباب فقط، والتعلق بها وهي ما يسميه بظاهر الملك، وأنَّ على المؤمنين البحث عما وراء الأسباب؛ لينتهوا من خلالها إلى مسبب الأسباب ومالك الموت – سبحانه وتعالى – وهذا ما يعرفه بعالم الملكوت.

---

[1] الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج٦/ص٣٧٤٣.

[2] سورة الشعراء، الآيات: ٧٧-٨١.

[3] الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج٦/ص٣٧٤٣.

obeikan.com

ونعود إلى تحليل الشعراوي لمقالة سيدنا إبراهيم - عليه السلام - السابقة في سورة الشعراء. يقول: «...وهنا قفز سيدنا إبراهيم من كل الأسباب والحلقات الظاهرية إلى الحقيقية، وعرف الغيب (وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ) وهو بذلك يميز بين الوسيلة للشفاء وهم الأطباء المعالجون والشافي الأعظم وهو الله تبارك وتعالى؛ لأنَّ الناس قد تفتن بالأسباب وتقول: إنَّ الطبيب هو من يشفي؛ ولذلك ينتقل سيدنا إبراهيم من ظواهر الأسباب إلى بواطن الأمور، وينتقل من ظواهر الملك إلى باطن الملك...إذن (فَهُوَ يَشْفِينِ) أي أنَّ الشفاء من الله، والعلاج من الطبيب، وبذلك جاء سيدنا إبراهيم بالأشياء التي يمكن أن يفتن الإنسان في أسبابها، وأكدها بـ (هُوَ)...»[1]

ثم استحضر الشعراوي ما سجله النص القرآني من وفاء إبراهيم - عليه السلام - بأداء التكاليف، وعشقه لها، ولمنهج الله تعالى، فاستدل بالآيات التي تدل على ذلك من القرآن الكريم، وذلك تمهيدًا لحديثه عن موضوع التكاليف الإلهية في حياة النبي إبراهيم عليه السلام. يقول الشعراوي: «وحين ننظر إلى إبراهيم - عليه السلام - في قصة العقيدة والتكاليف نجده قد أخذ سلطانًا كبيرًا يعترف به

[1] الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج٦/ص٣٧٤٣-٣٧٤٤.

جميع الأنبياء؛ لأنَّ ربنا قال فيه: (وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى)[1] وكذلك قوله تعالى: (وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا)[2] أي إنك يا إبراهيم مأمون أن تكون إمامًا للناس»[3]

فلقد أراد الشعراوي من حديثه السابق أن يُهيئ جمهوره للمضمون الوعظي، الذي يمكن أن يستفيدوا منه، فهو لا يفسر القرآن بعيدًا عن واقع حياة المكلف المعاصر، الذي يخاطبه بخواطره ليل نهار؛ لذا فهو لا يفسره دون محاولة منه لتوظيفه دعويًّا.

فلقد أوضح سابقًا أنَّ فوز إبراهيم – عليه السلام – بالعطاءات الإلهية في عالم الملكوت، كان بسبب وفائه وصدقه في تنفيذ التكاليف الإلهية على مدار أطوار حياته، فأراد أن يحفز جمهوره على الالتزام بالتكاليف الإلهية، والقيام بها على أحسن حال، فألقى بظلال خواطره على واقعهم؛ ليفعلها في حياتهم الدينية، محاولًا الربط الموضوعي في صورة حيوية بين موضوع التكليف الإلهي في حياة المكلفين وبين التكليف الإلهي في حياة إبراهيم – عليه السلام – باعتباره أبو الأنبياء المتجسد في سيرته الصورة المثالية لاحترام

---

[1] سورة النجم، الآية: ٣٧.

[2] سورة البقرة، الآية: ١٢٤.

[3] الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج٦/ص٣٧٤٤.

التكاليف الإلهية؛ لذا نجده قد اتجه بخواطره مخاطبًا كل مُكَلَّف يسير على درب إبراهيم – عليه السلام – قائلًا في قوله تعالى: «(وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ[1] السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ)[2] وكل من يسير على قدم إبراهيم عليه السلام، فلقد أوضح له الحق: أنت مأمون على أسرار كوني، وأعطاه الحق الكثير، كما يُعطي الحق سبحانه لكل من يخلص في الارتباط بخالقه يعطيه ربنا عطاءات من أسرار كونه، ويضرب الحق سبحانه لنا كثيرًا من المثل في القرآن، فيقول: (وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ)[3]»[4]

فمن الشاهد السابق من سورة البقرة، نجد أنَّ معنى التقوى عند الشعراوي متصل كذلك بتنفيذ المُكَلَّف للتكاليف الإلهية، ومدى صدقه وإخلاصه في أدائها، وهذا هو الذي يرقى بالمُكَلِّف إلى درجة الاطلاع على أسرار الملكوت. يقول الشعراوي: «أي أنك ما دمت مأمونًا على ما عرفت من أحكام الحق لحركة حياتك وتنفذه، فإنَّ الحق يعتبرك أمينًا على أسراره، ويعطيك المزيد من الزيادة، ومعنى

[1] قرأها عكرمة «ملكوت بالثاء» ابن خالوية، مختصر في شواذ القرآن من كتاب البديع، ج١/ص٤٤، ط. مكتبة المتنبي، القاهرة.

[2] سورة الأنعام، الآية: ٧٥.

[3] سورة البقرة، الآية: ٢٨٢.

[4] الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج٦/ص٣٧٤٦.

«تتقي» أي تلتحق بمنهج الحق، وإذا التحمت بالمنهج الحق كنت في الفيوضات الدائمة التي لا تنقضي من الحق»[1]

(ب) العلاقة بين تنفيذ المُكَلَّف للتكاليف الإلهية والاطلاع على عالم الملكوت:

وانطلاقًا من المضمون السابق الذي أشار إليه الشعراوي، في أنَّ التقوى هي الالتحام بالمنهج الإلهي، وأنَّ هذا الالتحام بالمنهج الإلهي هو الذي بفضله يُوهَبُ العبدُ الاطلاعَ على عالم الملكوت، فيبدأ الشعراوي في عرض شواهد على ذلك من السيرة النبوية والنص القرآني الكريم، موظفًا في ذلك وسيلة ضرب المثل لتيسير المعنى، وتوصيله إلى جمهوره، فالالتحام بالمنهج يتمثل في تنفيذ المكلفين للتكاليف الإلهية، ويتأتى من خلاله الانتقال من عالم الملك إلى عالم الملكوت. يقول الشعراوي: «ومثال ذلك ما حدث في «قصة الهجرة» تجد الرسول ﷺ وسيدنا أبا بكرٍ في الغار، ويقول أبو بكر لرسول الله: لو نظر أحدهم تحت قدمه لرآنا، وهذه قضية كونية مؤكدة، ويرد عليه الرسول ﷺ بما ينقله من القضية الكونية الظاهرة الواضحة إلى عالم الملكوت الخاص، ويقول: (يا أبا بكر، ما

[1] الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج٦/ص٣٧٤٦.

ظنك باثنين الله ثالثهما)[1] »[2] فطمأنة وتثبيت رسول الله ﷺ لأبي بكرٍ الصديق – رضي الله عنه – كانت من منطلق نظره – ﷺ – في عالم الملكوت، والذي أدرك من خلاله أنهما في معية الله تعالى.

وحتى يزيد الشعراوي هذا المعنى وضوحًا نراه يلجأ إلى ضرب المثل سعيًا منه لتوضيح المعنى لجمهوره. يقول: « ...وحين يكون الضعيف في معية القوي، فقانون القوي هو الذي يتغلب، فلا يصبح الضعيف ضعيفًا، فحين يكون هناك ولد بين الأطفال الذين في مثل سنه ويضطهدونه ويؤلمونه ويؤذونه، ثم يرونه في يد أبيه لا يجرؤ أحد منهم أن يأتي ناحيته، والناس لا يقدر بعضهم على بعض إلا إذا انفلتوا من معية الله، ومن في معية الله لا يجترئ عليه أحد أبدًا »[3]

---

[1] رواه مسلم في صحيحه، صحيح مسلم بشرح الإمام النووي، المجلد الثامن، الجزء الخامس عشر، ص١٢٥، كتاب فضائل الصحابة رضي الله – تعالى – عنهم، باب من فضائل أبي بكر الصديق – رضي الله عنه –، رقم الحديث: ٢٣٨١.
فقد أورد الإمام مسلم: «حدثني زهير بن حرب وعبد بن حُمَيْد وعبد الله بن عبد الرحمن الدرامي (قال عبد الله: أخبرنا، وقال الآخران: حدثنا) حبان بن هلال حدثنا همام حدثنا ثابت حدثنا أنس بن مالك أن أبا بكر الصديق حدثه قال: نظرت إلى أقدام المشركين على رؤوسنا، ونحن في الغار، فقلت: يا رسول الله ﷺ لو أن أحدهم نظر إلى قدميه أبصرنا تحت قدميه، فقال ﷺ: يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما»

[2] الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج٦/ص٣٧٤٦.

[3] الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج٦/ص٣٧٤٦.

وهـذا الأسـلوب مـن الشـعراوي تتجلـى فيـه الناحيـة الوعظيـة، والتي بلا شك تفرض نفسها في غالب تفسيره للقرآن الكريم؛ وذلك بسبب تناوله لهذا التفسير عبر أجهزة الإعلام المختلفة، وهذا بدوره يفرض عليه ألا تكون خواطره حول القرآن الكريم مبتورة عن واقع جمهوره.

فهذا الموقف من السيرة النبوية الذي استشهد به الشعراوي، يؤكد أنَّ الثقة بالله – تعالى – في أوقات الضيق، والثقة في نصره، رغم قصور الأسباب الظاهرة، وحتى في غيرها من الأوقات، في كل ما يمر به الإنسان، إنما هو نظرة المؤمن الذي يتعدى ببصره الأسباب الظاهرة إلى بواطن الأمور وكوامنها، ببصيرة متيقنة لحكمة الله – تعالى – في مجريات الأمور، وهذا ما يعده الشعراوي الرؤية من عالم الملكوت، والتي لا يهبها الله – تعالى – إلا لمن التحم بالمنهج الإلهي، والتزم تكاليفه، وصدق في أدائها، وخلص لله تعالى.

وبلا شك يتراءى للباحث نظرة الشعراوي الشمولية حين محاولته لتدعيم مضمون موضوعه بموقف من مواقف السيرة النبوية، وذلك دون اقتصار على الشواهد القرآنية فحسب، ويتجلى في هذا أيضًا بروز ملامح اللون الموضوعي في خواطره القرآنية.

ثم استحضر الشعراوي نموذجًا آخر، ولكن من النص القرآني؛ كي يدعم به خواطره حول هذا المضمون، فيأتينا بقصة العبد الصالح مع موسى – عليه السلام – لكي يبرز من خلال خواطره حولها الفرق بين النظر في عالم الملك، والنظر في عالم الملكوت، فيستهل الشعراوي خواطره حول هذا المضمون بقوله: «...ويرسل لنا ربنا قضايا الملك وقضايا الملكوت، ويمثلها في رسول من أولي العزم من الرسل مع عبد صالح آتاه الله شيئًا من علمه وفيضه؛ لأنه اتقاه، يقول الحق سبحانه: (فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا)[1] إنَّ هذا العبد قد أخذ منهج الرسول الذي جاء به واتبعه، فأدَّاه حق الأداء، فاتصل بالحق، فأعطاه الحق من لدنه علما»[2]

ثم يوضح الشعراوي الاختلاف بين نظرة موسى – عليه السلام – للأمور ونظرة العبد الصالح لها، وهذا من منطلق أنَّ موسى ينظر للأمور في إطار عالم الملك، بينما ينظر العبد الصالح إليها من خلال عالم الملكوت. يقول الشعراوي: «وموسى – عليه السلام – معذور؛ لأنه ينظر في دائرة الأسباب، والعبد الصالح معذور هو الآخر؛ لأنه

---

[1] سورة الكهف، الآية: ٦٥.

[2] الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج٦/ص٣٧٤٦-٣٧٤٧.

ينظر في دائرة ثانية، ولذلك سيقول العبد الصالح: (وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي)[١] وحين ننظر إلى تقدير موقف كل منهما للآخر نجد العبد الصالح يقول: (إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا)[٢] أي أنَّ العبد الصالح يعذر موسى، ويضيف (وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا)[٣] فيقول القرآن على لسان موسى: (قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا)[٤]»[٥]

ثم يعود الشعراوي منبهًا لجمهوره لفائدة هذا الشاهد القرآني في معالجة الموضوع الذي يتناوله، وهو ارتباط تنفيذ التكاليف بالفتوحات للعبد في عالم الملكوت؛ ولهذه العلة استحضر الشعراوي قصة العبد الصالح مع موسى عليه السلام، فأراد ألا ينصرف جمهوره عن هذا المغزى، وكذلك كي ينتبهوا إلى أنَّ موسى – عليه السلام – الذي جاء ليبلغ المنهج يطيع عبدًا صالحًا طبَّق المنهج من رسول سابق، ونفذه كما «يحب الله – تعالى – والتحم بالمنهج، وجاء لنا ربنا بهذه القصة مع رسول من أولي العزم، ويتلقى موسى – عليه السلام – الأمر من

---

[١] سورة الكهف، الآية: ٨٢.

[٢] سورة الكهف، الآية: ٦٧.

[٣] سورة الكهف، الآية: ٦٨.

[٤] سورة الكهف، الآية: ٦٩.

[٥] الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج٦/ص٣٧٤٧.

obeikan.com

العبد الصالح (قَالَ فَإِنِ اتَّبَعۡتَنِي فَلَا تَسۡـَٔلۡنِي عَن شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ أُحۡدِثَ لَكَ مِنۡهُ ذِكۡرٗا)[1] لماذا؟ لأنَّ العبد الصالح يعلم أنَّ موسى سيتكلم عن عالم الملك، وهو يتكلم من عالم الملكوت»[2]

ثم يُنهي الشعراوي هذا الشاهد من سورة الكهف، بتوضيحه لفائدة عالم الملكوت في عالم الملك، وذلك من خلال تحليل سريع لقفصة خرق العبد الصالح لسفينة المساكين، الذين يعملون في البحر، واعتراض موسى – عليه السلام – على ذلك، وقصة قتل الغلام، وقصة بناء الجدار، فيعقب الشعراوي على ذلك قائلًا: «وحين ندقق النظر في هذه الأمور نجد عالم الملكوت يُصحح الأمور الشاذة في عالم الملك، إذن لو علم صاحب نظرية الملك ما في نظرية الملكوت من أسرار، لفعل هو الفعل نفسه، وهذا يوضح لنا الخلاف بين عالم الملك وبين عالم الملكوت، فعالم الملكوت هو الذي يغيب عنا وراء الأسباب، وكثير من الناس يقف عند الأسباب، ولا ينتقل من الأسباب إلى السبب المباشر، إلى أن ينتهي إلى مسبب ليس بعده سبب»[3]

---

[1] سورة الكهف، الآية: ٧٠.

[2] الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج٦/ص٣٧٤٧، ٣٧٤٨.

[3] الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج٦/ص٣٧٤٨، ٣٧٤٩.

obeikan.com

فلقد أراد الشعراوي بالشاهد النبوي في قصة الغار، والشاهد القرآني في قصة العبد الصالح مع موسى - عليه السلام - أن يؤكد المضمون المهم الذي يعالجه، وهو أنَّ كل من يسير على درب إبراهيم - عليه السلام - في الالتحام بمنهج الله - تعالى - وتطبيق تكاليفه بعين الحب؛ يفتح الله - تعالى - له عطاءات من عالم الملكوت، ولقد وظَّف الشعراوي الشواهد السابقة لتدعيم ذلك وتوضيحه من خلال النص القرآني والسيرة النبوية.

(ج) عرض الشعراوي - من خلال النص القرآني - لصبر إبراهيم على مشقة التكاليف الإلهية:

(وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ[1])[1]

---

[1] لقد أورد الشعراوي معنى كلمة اليقين في النص القرآني بطريقة موضوعية، سعى من خلالها إلى إبراز الأنماط التي وردت بها في القرآن الكريم، ثم التدرج في توضيح معانيها إلى أن يصل بها إلى أعلاها، والتي وصل إليها سيدنا إبراهيم عليه السلام.

يقول الشعراوي: «موقنين: جمع «موقن» والجمع أقله ثلاثة، واليقين ينقسم إلى ثلاث مراحل: يقين بعلم من تقف فيه؛ لأنه لا يكذب، ويقين بعين ما تخبر به، ويقين بحقيقة المخبر به.

ثم يطالعنا الشعراوي على صور من حياة سيدنا إبراهيم – عليه السلام – تصور مدى صبره على مشقة التكاليف الإلهية سواء في مجال الدعوة إلى الله – تعالى – مع المشركين، أو على المستوى الشخصي، فاستحضر الشعراوي قصة إلقائه في النار، وقصة أمر الله – تعالى – له بذبح ابنه إسماعيل، فأتى الشعراوي بهذا القصص من خلال ما أخبر القرآن الكريم عن سيدنا إبراهيم – عليه السلام – في تصويره لمدى صبره على أعباء الدعوة وابتلاءاتها دون ضجر أو سخط؛ ولأجل هذا منحه الله – تعالى – هبة أنَّ أطلعه على ملكوته.

=وحين عرض الحق سبحانه وتعالى هذه المسألة في سورة التكاثر قال: (أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ (١) حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ (٢) كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣) ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٤) كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ) سورة التكاثر.

إذا أخبرتم فهذا الخبر هو الصورة العلمية، وكان يجب أن يكون ما أخبركم به علم اليقين (كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ (٥) لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ (٦) ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ)؛ لأننا سوف نرى النار في الآخرة، لكن لم تأت حقيقة اليقين، وجاءت حقيقة اليقين في سورة الواقعة: (وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (٩٠) فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (٩١) وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ (٩٢) فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ (٩٣) وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ (٩٤) إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ) سورة الواقعة.

وسيدنا إبراهيم كان حقًّا من الموقنين في كل أدوار حياته»، الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج٦/ص٣٧٤٩-٣٧٥٠.

[1] سورة الأنعام، الآية: ٧٥.

فحينما ابتلي إبراهيم بالحرق في النار، لم يتنح عن مهام الدعوة بسبب هذا الابتلاء الشديد، بل صبر وتجلّد؛ لأنَّ هذا من تكاليف ومهام الدعوة إلى اللّه – تعالى – والتي يثابر أربابها من أجل أن تؤتي ثمارها. يقول الشعراوي: «وسيدنا إبراهيم – عليه السلام – كان حقًّا من الموقنين في كل أدوار حياته؛ لأنَّ اللّه أعلمه ما وراء مظاهر الملك، وما وراء مظاهر الأشياء وعواقبها، فمثلًا عندما أخذ ليطرح في النار جاء له جبريل ليقول: ألك حاجة؟ قال سيدنا إبراهيم: أما إليك فلا[1] ويقول ذلك وهو يعرف أنَّ النار تحرق، ولكن هذا ظاهر الملك، وظواهر الأشياء، وسيدنا إبراهيم يعلم أنَّ الذي خلقها جعلها محرقة، ويستطيع أن يجعلها محرقة، وهو متيقن به»[2]

ثم يوضح الشعراوي مسألة مهمة في معالجته لهذا المضمون، وهي أنَّ إبراهيم – عليه السلام – بسبب صبره على مشاق الدعوة إلى اللّه دون ضجر، ويقينه في اللّه – تعالى – الذي لا يتزعزع، وثقته

---

[1] لقد أورد الطبري هذه المروية في تفسير قوله تعالى: (قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ) سورة الأنبياء، الآية: ٦٩، فذكر الطبري في تفسيره أنه: «حدثنا الحسن، قال: ثنا الحسين، قال: ثنا معتمر بن سليمان =التيمي، عن بعض أصحابه قال: جاء جبريل إلى إبراهيم عليهما السلام، وهو يوثق أو يقمط ليلقى في النار، قال: يا إبراهيم ألك حاجة؟ قال: أما إليك فلا» الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، ج٩/ص٤٤.

[2] الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج٦/ص٣٧٥٠.

في نصره لدرجة أنه حينما ألقي في النار، تقبل هذا الأمر بمنتهي الرضا، ولم يطلب شيئًا مثل تخفيف هذا الابتلاء أو رفعه، وإنما تعدَّى بصره الظواهر التي أمامه، والأسباب التي يشاهدها إلى مسبب الأسباب، «ولذلك لم يطفئ اللّه النار بظاهر الأسباب، ولكن جعلها اللّه ليًّا لأعناق خصومه، فأوضح الحق: يا نار أنا خلقت فيك قوة الإحراق، وأنا أقول لك الآن: لا تحرقي (قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ)[1] إذن فإبراهيم يعرف هذه الحقائق المختفية وراء الملك الظاهر، وهذا من الابتلاءات الأولى في حياته»[2] وإشارة الشعراوي إلى أنَّ هذا الابتلاء كان مما تعرض له في أوائل حياته هو تنويه على أنَّ إبراهيم – عليه السلام – منذ بداية حياته مطيعٌ لربه، ولا يعصي له أمرًا، ويتقبل كافة الابتلاءات بعين الرضا والوفاء، ولهذا وُهِبَ منذ بداية حياته الاطلاع على أسرار الملكوت.

وبعد عرض الشعراوي لابتلاء إبراهيم – عليه السلام – بإلقاء المشركين له في النار، وصبره وفاءًا منه، وحرصًا على خدمة الدعوة إلى اللّه تعالى، فكان أن ثبته اللّه – تعالى – وتجاوز ببصيرة قلبه من ظاهر الملك إلى عالم الملكوت، انتقل بنا الشعراوي إلى ابتلاءٍ

---

[1] سورة الأنبياء، الآية: ٦٩.

[2] الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج٦/ص٣٧٥٠.

آخر أشد وطأةً على نفس سيدنا إبراهيم - عليه السلام - وهو تكليف الله - تعالى - وأمره إياه بأن يذبح ابنه إسماعيل عليه السلام، ولم يدخل الشعراوي مباشرةً في تناول قصة الذبيح إسماعيل عليه السلام، بينما اتجه الشعراوي إلى إثارة مشاعر جمهوره، حتى يستشعروا عظم هذا الأمر الإلهي على النفس البشرية، وذلك حتى يبين لنا مدى مشقة هذا التكليف الإلهي على نفس سيدنا إبراهيم عليه السلام، وأنه بالرغم من هذه المشقة إلا أنه - عليه السلام - امتثل طائعًا لأمر الله - تعالى - دون تردد أو تلكؤ في تنفيذ أمر الله تعالى، فاستهل الشعراوي خواطره حول قصة الذبيح إسماعيل بالآتي يقول: «ثم يأتي له الابتلاء في آخر حياته بذبح ولده، ونعلم أنَّ الإنسان تمر عليه أطوار تكوين ذاتيته، وأحيانًا تكون الذات هي المسيطرة، وفي طور آخر تبقى ذاتية أولاده فوق ذاتيته، أي أنه يحب أولاده أكثر من نفسه يتمنى أن يحقق لأولاده كل ما فاته شخصيًّا، فلما كبر إبراهيم ووهبه الله الولد يأتيه الابتلاء بأن يذبح ابنه[1]، إنه ابتلاء شديد قاس، وهو ابتلاء لا يأتي بواسطة وحي، بل بواسطة رؤيا»[1]

---

[1] يذكر العهد القديم أنَّ الذبيح هو إسحاق، ففي سفر التكوين: «(١) وحدث بعد هذه الأمور أنَّ الله امتحن إبراهيم، فقال له: يا إبراهيم، فقال: هأنذا (٢) فقال: خذ ابنك وحيدك الذي تحبه إسحاق، واذهب إلى أرض المريا، وأصعده هناك (٣) محرقة على أحد الجبال الذي أقول لك» التوراة، سفر التكوين، الإصحاح الثاني والعشرون، الآيات: ١-٣.

ولقد عرج الشعراوي في لمحة سريعة إلى قضية أنَّ المصيبة إذا أصابت أي عبد في أي شيء عليه أن يدرك أنَّ «القضاء لا يُرفَع حتى يُرضَى به»[2]، ويعلل الشعراوي بأنَّ سبب طول القضاء على أي إنسان، أنه «لم يرضَ بما وقع له، ولو أنه رضي لانتهى القضاء، إذن الناس هم الذين يُطيلون على أنفسهم أمد القضاء»[3]

=وفي الحقيقة أنَّ هذا الكلام السابق الوارد في العهد القديم، يناقض ما ورد أيضًا في العهد القديم في موضعٍ آخر، إذ كيف يكون إسحاق هو الابن الوحيد لإبراهيم، وأنَّ اللّه ابتلاه فيه، والواقع أنَّ الابتلاء كان في إسماعيل الابن الأكبر، والوحيد في ذلك الوقت لإبراهيم، قبل أن يولد إسحاق، هذا بدليل ما ورد في سفر التكوين: «وأمَّا ساراي امرأة أبرام فلم تلد له، وكانت لها جارية مصرية اسمها هاجر (٢) فقالت ساراي لأبرام: هو ذا الرب قد أمسكني عن الولادة، ادخل على جاريتي، لعلي أرزق منها بنين، فسمع أبرام لقول ساراي ...(٤) فدخل على هاجر فحبلت...(١٥) فولدت هاجر لأبرام ابنًا، ودعا أبرام اسم ابنه الذي ولدته هاجر إسماعيل (١٦) كان إبراهيم ابن ستٍّ وثمانين سنة لما ولدت هاجر إسماعيل لأبرام» التوراة، سفر التكوين، الآية: ١، ٢، ٣، ٤، ١٥، ١٦.

إذن لقد وُلِدَ إسماعيل لإبراهيم وهو يبلغ من العمر ست وثمانين سنة، ووُلِدَ له إسحاق كما ورد في العهد القديم وهو يبلغ مائة سنة «(٥) وكان إبراهيم ابن مائة سنة حين ولد له إسحاق ابنه» التوراة، سفر التكوين، الإصحاح الحادي والعشرون، الآية: ٥.

إذًا فكيف كان إسحاق هو الابن الوحيد لإبراهيم!

[1] الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج٦/ص٣٧٥١.

[2] الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج٦/ص٣٧٥١.

[3] الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج٦/ص٣٧٥١.

وتلك إطلالة وعظية من الشعراوي يتوجه بها إلى جمهوره العريض، الذي يتابع خواطره حول القرآن، وهو كذلك توظيف منه للقصة، وتفعيلها في مجال الوعظ والإرشاد ليقود جمهوره من وحيها إلى تصحيح بعض المفاهيم، والتي منها توجيههم التوجيه الصحيح حيال المصاعب، التي تمر عليهم في حياتهم الدنيا، وربما قد تعكر عليهم صفو الإيمان.

وعقب تفاعل الشعراوي مع جمهوره من خلال عرضه المضمون السابق، اتجه محللًا لسياسة سيدنا إبراهيم مع ولد إسماعيل - عليهما السلام - أثناء إبلاغه أمر الله - تعالى - بذبحه، فقد سعى من خلال ذلك إلى توضيح مدى تقبل إبراهيم - عليه السلام - للتكليف الإلهي، وإظهار مدى رضاه به، ولم يكتفِ بهذا الرضا والتسليم في نفسه فحسب، بل تعداه إلى محاولة إبلاغ ولده إسماعيل - عليه السلام - بطريقة تجعله ينفذ أمر الله - تعالى - بعين الرضا والطاعة والتفويض، وهذا يظهر قمة الوفاء والرضا من إبراهيم - عليه السلام - لله تعالى، وفي ذلك يقول الشعراوي: «ولذلك عرف سيدنا إبراهيم هذه القضية، قضية فهمه لعالم الملكوت، فلما قيل له: «اذبح ابنك» لم يرد أن يمر ابنه بفترة سخط على تصرف أبيه؛ لأنه إن أخذه من يده، وفي اليد الأخرى السكين، فلا بُدَّ أن

تكون هذه اللحظة مشحونة بالسخط، فيحرم من الجزاء، فيبين له المسألة، ويقول القرآن حكاية عن إبراهيم: (يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى[1]) وهذا القول يريد به إبراهيم أن ينال ابنه ثواب الاستسلام، وهو دليل محبة إبراهيم لولده، فماذا قال إسماعيل: (يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ)[2]»[3]

ثم استحضر الشعراوي من النص القرآني ما يستدل به على تمام رضا إبراهيم وولده إسماعيل – عليهما السلام – بالتكليف الإلهي، وكذلك ما نتج عن هذا الرضا من رفع الله – تعالى – لهذا التكليف، وتأكيد الشعراوي على أنَّ قيام إبراهيم – عليه السلام – بهذا التكليف وغيره هو ما أوصله إلى درجة اليقين، وذلك نتيجة عشقه لتكاليف الله – تعالى – ومثوله لها في الحال، فوُهِبَ الاطلاع على أسرار الملكوت، إذ لم تحجبه حواجز عالم الملك؛ لاتصاله الصادق بمسبب الأسباب مالك عالم الملك والملكوت.

---

[1] سورة الصافات، الآية: ١٠٢.

[2] سورة الصافات، الآية: ١٠٢.

[3] الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج٦/ص٣٧٥١.

obeikan.com

يقول الشعراوي: «ويؤكد القرآن رضا إبراهيم وابنه بالقضاء فيقول: (فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ)[1] وهذا هو القبول بالقضاء المثل في التكليف، هو ما يرفعه، لذلك يقول القرآن بعدها: (وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ)[2]»[3] ويوضح الشعراوي أنَّ إبراهيم – عليه السلام – كافأه الله – تعالى – كذلك بأن رزقه ولدًا آخر، وعَلَّلَ ذلك بأنَّ إبراهيم «فَهِمَ ملكوت السماوات والأرض، وعرض نهاية الأشياء»[4]

بعد هذا العرض لخواطر الشعراوي حول الآية ٧٥ من سورة الأنعام، والواردة حول قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام، نلاحظ أنَّ الشعراوي لم يلتفت للتفاصيل التي تزاحم على إبرازها العديد من المفسرين، وإنما كانت توجهه خاطرة معينة حول موضوع التكاليف الإلهية، فنراه قد عمد إلى الربط الموضوعي بين ما تحمله هذه الآية من إطلاع إبراهيم – عليه السلام – على الملكوت، وبين تطبيق التكاليف الإلهية والالتزام بها، فانتهى الشعراوي إلى أنَّ معنى

---

[1] سورة الصافات، الآية: ١٠٣.

[2] سورة الصافات، الآيتان: ١٠٤، ١٠٥.

[3] الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج٦/ص٣٧٥١.

[4] الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج٦/ص٣٧٥٢.

obeikan.com

«إراءته من الملكوت» هو الانتقال من عالم الأسباب إلى ما وراء الأسباب؛ ولذلك يقول الشعراوي: إنَّ الخلاف بين عالم الملك وعالم الملكوت، إنَّ عالم الملكوت هو «الذي يغيب عنا وراء الأسباب، وكثير من الناس يقف عند الأسباب، ولا ينتقل من الأسباب إلى السبب المباشر، إلى أن ينتهي إلى مسبب ليس بعده سبب»[1] وبيَّن الشعراوي أنه قد وصل إبراهيم – عليه السلام – إلى هذه المرحلة؛ بسبب التحامه بمنهج الله – تعالى – وصدقه وصبره ومثابرته ومسارعته في تنفيذ تكاليف الله – تعالى – لذا وهبه الله – تعالى – مواهب علمية جمة، كما وهبها للعبد الصالح في قصته مع موسى – عليه السلام – الذي امتثل تكاليف ربه، والتحم بمنهجه، فكان أن وهبه الله – تعالى – من لدنه علمًا.

وهذا المعنى الذي انتهى إليه الشعراوي في خواطره حول قوله تعالى: وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ)[2] لم يتناوله أحد من المفسرين القدامى كما تناوله، ولكن قد وجدت تشابهًا ما بين الشعراوي والرازي في بوادر الفكرة، وإن اختلفت المعالجة والتناول، فالرازي يرى بأنَّ عدم الاشتغال بغير الله

---

[1] الشعراوي، تفسير الشعراوي، ج٦/ص٣٧٤٩.

[2] سورة الأنعام، الآية: ٧٥.

obeikan.com

- تعالى - هو الذي يزيل الحجاب، ويكشف الحقائق والأسرار في عالم الملكوت، يقول الرازي: «وهنا دقيقة عقلية، وهي أنَّ نور جلال الله - تعالى - لائح غير منقطع ولا زائل ألبتة، والأرواح البشرية لا تصير محرومة عن تلك الأنوار إلا لأجل حجاب، وذلك الحجاب ليس إلا الاشتغال بغير الله تعالى، فإذا كان الأمر كذلك، فبقدر ما يزول ذلك الحجاب يحصل هذا التجلِّي»[1] الحجاب الذي يعنيه الرازي هنا، هو عبادة غير الله - تعالى - ولذلك نبذها إبراهيم - عليه السلام - فانكشفت له الحقائق.

يقول الرازي: «فقول إبراهيم - عليه السلام - [كما حكى القرآن الكريم] (أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً)[2] إشارة إلى تقبيح الاشتغال بعبادة غير الله تعالى؛ لأنَّ كل ما سوى الله فهو حجاب عن الله تعالى، فلما زال ذلك الحجاب لا جرم تجلَّى له ملكوت السماوات بالتمام، فقوله تعالى: (وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ)[3] معناه: وبعد زوال الاشتغال بغير الله حصل له نور تجلِّي جلال الله تعالى»[4]

---

[1] الرازي، مفاتيح الغيب، ج٦/ص٣٨٥.

[2] سورة الأنعام، الآية: ٧٤.

[3] سورة الأنعام، الآية: ٧٥.

[4] الرازي، مفاتيح الغيب، ج٦/ص٣٨٥.

بينما يرى الشعراوي أنَّ انكشاف الحجب لإبراهيم – عليه السلام – كان بسبب تطبيقه لتكاليف ربه دون تسويف أو تراخ، فأراه اللّٰه – تعالى – أسرار الملكوت، وهي الاطلاع على بواطن الأمور، ولم يحدد الشعراوي كغيره من قدامى المفسرين كيفية تلك الإراءة، ولم يقصرها كما قصروها في أنماطٍ معينة، حيث ذكر بعض المفسرين في تأويل قول اللّٰه تعالى (وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ)[1] معانٍ عدة، فمن مدرسة التفسير بالمأثور نجد الطبري قد أورد اختلاف المفسرين في تأويلها. يقول: «...فقال بعضهم: معنى ذلك نريه خلق السماوات والأرض»[2] ولقد أتى بمروياتٍ عدة في ذلك منها ما قاله مجاهد من أنه «تفرجت لإبراهيم السماوات السبع حتى العرش، فنظر فيهن، وتفرجت له الأرضون السبع، فنظر فيهن»[3]

ثم ذكر الطبري رأيًا آخر يقول: «وقال آخرون: بل معنى ذلك ما أخبر تعالى أنه أراه من النجوم والقمر والشمس»[4] ودعم هذا الرأي بمرويات عدة، ثم انتهى الطبري إلى الجمع بين أنَّ اللّٰه – تعالى –

---

[1] سورة الأنعام، الآية: ٧٥.

[2] الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، ج٥/ص٢٤١.

[3] الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، ج٥/ص٢٤٢.

[4] الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، ج٥/ص٢٤٣.

obeikan.com

قد أطلع إبراهيم – عليه السلام – على عظيم سلطانه في السماوات والأرض، وأيضًا جلَّى له بواطن وأسرار الأمور وظواهرها[1].

ومن المعتزلة نجد أنَّ الزمخشري يرى أنَّ هداية اللّه – تعالى – لإبراهيم عن طريق معرفة اللّه – تعالى – بالاستدلال النظري في استقراء ظاهر الملكوت هو المقصود من الآية، يقول: « ...ومثل ذلك التعريف والتبصير نعرف إبراهيم ونبصره ملكوت السماوات والأرض بما شرحنا صدره، وسددنا نظره، وهديناه لطريق الاستدلال»[2] فالزمخشري يرى بأنه نظرٌ فكري كانت ثمرته الهداية إلى اللّه – تعالى – عن طريق الاستدلال.

ولقد أورد البغوي ما ذكره سابقوه من المفسرين، فأتى برأي قتادة الذي قال بأنَّ اللّه – تعالى – أراه: «ملكوت السماوات والأرض والقمر والنجوم، وملكوت الأرض والجبال والشجر والبحار، (وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ)[3] عطف على المعنى، ومعناه: نريه ملكوت السماوات والأرض؛ ليستدل به، وليكون من الموقنين»[4]

---

[1] الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، ج٥/ راجع النص ص٢٤٣.

[2] الزمخشري، الكشاف، ج٢/ص٣٨.

[3] سورة الأنعام، الآية: ٧٥.

[4] البغوي، معالم التنزيل، ج٢/ص٨٩.

ولقد أورد ابن عطية أنَّ الآية تقضي بهداية إبراهيم – عليه السلام – وأنَّ الإشارة هنا بـ «كذلك» هي إشارة إلى تلك الهداية، أي: «وكما هديناك إلى الدعاء إلى الله، وإنكار الكفر أريناه ملكوت السماوات والأرض»[1] غير أنَّ ابن عطية لم يرجح من جملة أقوال العلماء في تفسير «الإراءة في الملكوت» إلا قولين؛ القول الذي يقول أنها رؤية «بصر في ظاهر الملكوت وقع له معها من الاعتبار ورؤية القلب ما لم يقع لأحد من أهل زمنه الذين بعث إليهم، قاله ابن عباس وغيره، وقيل: هي رؤية قلب رأى بها ملكوت السماوات والأرض بفكره ونظره، وذلك ولا بُدَّ متركب على ما تقدم من رؤيته ببصره، وإدراكه في الجملة بحواسه»[2] وكلا الرأيين لا يختلفان؛ فأحدهما قدم الرؤية البصرية، وجعل الاعتبار القلب ثمرة له، والرأي الآخر قدم الاعتبار القلبي، وجعل الرؤية البصرية ثمرة ونتيجة له.

ومن مدرسة التفسير الشيعي نجد الطبرسي قد أورد أنَّ المقصود من إراءة إبراهيم الملكوت، أنها وهب الله – تعالى – له الحجة أمام قومه، أي «القدرة التي تقوى بها دلالته على توحيد الله تعالى»[3]

---

[1] ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ج٢/ص٣١١.

[2] ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ج٢/ص٣١١.

[3] الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، ج٤/ص٦٩.

كما أورد الطبرسي رأي ابن عباس وقتادة في أنَّ المعنى هو: «...كما أريناك يا محمد أريناه آثار قدرتنا فيما خلقنا من الشمس والقمر والنجوم، وما في الأرض من البحار والمياه والرياح ليستدل بها»[1]

ولقد انفرد ابن كثير بطريقة تفسيره لهذه الآية، وأيضًا برأيه الذي أدلى به حول المرويات الواردة في شرح معنى الآية، ونستطيع القول بأنه قد بدا في أسلوبه ملامح اللون الموضوعي في تناوله لهذه الآية، فقد بدأ تفسيره للآية، بتوضيحه أنَّ إظهار الوحدانية لإبراهيم – عليه السلام – عن طريق النظر في خلق السماوات والأرض، هو نفسه طريق الدعوة القرآنية للاستدلال على الوحدانية.

ثم استعرض ابن كثير من النص القرآني ما يقوي به رأيه ذلك، فيقول ابن كثير: «(وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ)[2] أي نبين له وجه الدلالة في نظره إلى خلقهما على وحدانية الله عز وجل في ملكه وخلقه، وأنه لا إله غيره ولا رب

[1] الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، ج٤/ص٦٩.
[2] سورة الأنعام، الآية: ٧٥.

سواه، كقوله: (قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)[1]، وقال: (أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)[2]، وقال: (أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنْ نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ)[3]»[4]

ولقد أنكر ابن كثير ما ورد في شرح هذه الآية مما حكام ابن جرير وغيره، عن مجاهد، وعطاء، وسعيد بن جبير، والسدي[5]، وأيضًا رفض ما رواه ابن مردويه في ذلك، قال ابن كثير: «وقد روى

---

[1] سورة يونس، الآية: ١٠١.

[2] سورة الأعراف، الآية: ١٨٥.

[3] سورة سبأ، الآية: ٩.

[4] ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج٣/ص٢٨٤.

[5] لقد أورد تلك المرويات العديد من المفسرين دونما الاعتراض عليها، ولم يذكر الشعراوي أيًّا منها.

ومن هؤلاء المفسرين:

الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، ج٥/ انظر ص٢٤١-٢٤٤.

البغوي، معالم التنزيل، ج٢/ انظر ص٨٩.

الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، ج٤/ انظر ص٦٩-٧٠.

القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج٣/ انظر ٢٥٤٦-٢٥٤٧.

الخازن، لباب التأويل في معاني التنزيل، ج٢/ انظر ص٢٥٤٦-٢٥٤٧.

ابن مردويه في ذلك حديثين مرفوعين، عن معاذ وعلي، ولكن لا يصح إسنادهما، والله أعلم»[1]

ويذكر الخازن في تفسيره أنَّ التعبير عن الرؤية بلفظ المستقبل في قوله تعالى: (وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ) تعبير حسن؛ وذلك «لأنه – تعالى – كان أراه بعين البصيرة أنَّ أباه وقومه على غير الحق، فخالفهم فجزاه الله بأن أراه بعد ذلك ملكوت السماوات والأرض»[2]

ولقد ذكر البيضاوي أنَّ الآية (وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ)[3] قد شرحتها الآية التي تليها، فكأنما يرى أنَّ معنى الإرادة قد فصلها قوله تعالى: (فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ ..)[4] وذلك بما تحويه هذه الإراءة في ملكوت الله – تعالى – والاهتداء إلى احق من خلالها، يقول البيضاوي: «(وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ) أي

---

[1] ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج٣/ص٢٨٤.
[2] الخازن، لباب التأويل في معاني التنزيل، ج٢/ص٢٧.
[3] سورة الأنعام، الآية: ٧٥.
[4] سورة الأنعام، الآية: ٧٦.

ليستدل وليكون أو فعلنا ذلك ليكون (فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا) تفصيل وبيان لذلك...»[1]

ولهذا الرأي وجاهته وتستقيم ظاهر الآيات معه، ولم يذكر البيضاوي أي من المرويات الواردة في شرح هذه الآية.

أما الألوسي فلقد أورد تلك المرويات...من تفريج الله – تعالى – لإبراهيم الملكوت الأعلى والملكوت الأسفل، غير أنه انتهى إلى أنَّ هذه الأقوال وغيرها لا تقتضي بأن تكون فيها الإراءة «بصرية إذ ليس المراد بإراءة ما ذكر من الأمور الحسية مجرد تمكينه – عليه السلام – من إبصارها ومشاهدتها في أنفسها بلا إطلاعه – عليه السلام – على حقائقها وتعريفها من حيث دلالتها على شئونه عز وجل، ولا ريب في أنَّ ذلك ليس مما يدرك حسًّا كما ينبئ عنه التشبيه السابق»[2]

وننتقل إلى تناول بعض المفسرين المعاصرين لهذه الآية، وكيف كان تفسيرهم لمعنى إراءة إبراهيم لعالم الملكوت.

فلقد استرعى انتباهي رأي الإمام/ محمد عبده، والذي نقله السيد محمد رشيد رضا في تفسير المنار، والذي يرى فيه بأنَّ الأقوال الواردة في تفسير الآية من حيث تفريج السماوات والأرض

---

[1] البيضاوي، أنوار التنزيل، ج١/ص٣١٧.

[2] الألوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، ج٤/ص١٨٧.

obeikan.com

لإبراهيم أنه مجرد استنباطٍ للعلماء وليس على الحقيقة، يقول محمد عبده: إنه ليس «لهذه الأقوال الأخيرة حجة من الحديث المرفوع، وإنما استنبطوها فيما يظهر من إسناد الإراءة إلى اللّه عز وجل، فإنه يدل على عنايته الخاصة»[1] ويقرر محمد عبده بأنَّ الرؤية كانت «رؤية بصرية تتبعها رؤية البصيرة العقلية»[2] ولقد كان ذلك هداية من اللّه لإبراهيم - عليه السلام - حتى يقيم الحجة على المشركين الضالين، وأيضًا: «ليكون في خاصة نفسه من الواقعين على عين اليقين»[3]

ونأتي إلى الشيخ/ محمد الغزالي في تفسيره الموضوعي، والذي لا يظهر فيه تفصيل للآيات؛ وذلك نظرًا لطريقته الموضوعية الكلية في تناول السورة بالتفسير، فهو يهتم بكليات السورة، ولذا فقد غاب في ترابط الأفكار الكلية عند الغزالي تحليل الآية التي نحن بصدد خواطر الشعراوي حولها؛ وذلك لأنَّ الغزالي ينظر إلى الموضوعات العامة في السورة، ويبحث عن الخيط الذي يربطها فيما بينها، فإذا نظرنا إلى تناوله لسورة الأنعام، نجد أنَّ منتهى اهتمامه هو الربط بين واقع كفار قريش، وواقع الكفار من قوم إبراهيم - عليه السلام - وكذا

---

[1] تفسير المنار، ج٨/ص٤٦٣.

[2] تفسير المنار، ج٨/ص٤٦٢.

[3] تفسير المنار، ج٨/ص٤٦٣.

اهتمامه بطريقة وأسلوب إبراهيم في الدعوة إلى اللّه – تعالى – وكيف وصل إلى الحقيقة[1]

إذن لم يتناول الغزالي الآية (وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ) بالتفصيل أو الإشارة، وإنما اكتفى بمضمون قصة إبراهيم ككل وملامحها العامة وموقع القصة من الآيات السابقة واللاحقة لها، ثم موقعها من منظومة السورة ككل، وتلك إحدى أشكال الموضوعية في التفسير.

ونجد د/ محمد البهي في تفسيره الموضوعي لسورة الأنعام، قد أخذ يستعرض ملامح التشابه بين مشركي قريش، ومشركي قوم إبراهيم – عليه السلام – وغيرها من الملامح[2] الخاصة بالمكان والنسب.

ثم تَدَبَّر البهي نمط الحوار مع المشركين في عهد إبراهيم ليربطه بعهد محمد ﷺ. يقول د/ محمد البهي: «وفي تذكير القرآن – في هذه السورة – رسوله محمد ﷺ بقصة إبراهيم...ليريه نمط

---

[1] يقول محمد الغزالي: «وليس يتصور في جانب الإله الحق أنه يأفل أو يختفي لحظة أو لحظات، إنه قيوم تستند ديمومة الوجود إلى وجوده»، محمد الغزالي، نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم، تفسير سورة الأنعام، ص١٠٠.

[2] محمد البهي، التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، سورة الأنعام، راجع ص٦٤-٦٥.

المحاورة التي جرت بينه وبين أعداء الله من الماديين، وفي هذه المحاورة يتجلَّى منطق الإنسان في جانب إبراهيم، كما يتجلَّى هذا المنطق في جانب الرسول في محاجته للماديين في عهده بمكة»[1]

ثم نجد د/ البهي يسبح في أطوار صفاء النفس، إذا خلصت إلى بارئها دون أهواء تتلاعب بها أو أباطيل تشوه عليها الحقائق، وما تنتهي إليه من الصواب، فالطريق الذي سلكه إبراهيم – عليه السلام – في الوصول إلى الله – تعالى – هو طريق أي نفس صفت عما في الدنيا من هراء، فتجلَّت له حقائق الإله سبحانه وتعالى. يقول د/ محمد البهي: «ووضوح المنطق الإنساني في جانب الدعوة إلى الوحدة في الألوهية، سواء على عهد (إبراهيم)...أو على عهد (محمد) عليهما السلام ، يميز دعوة الحق بأنها دعوة الإنسانية، إذ بعدت عن الأهواء والوقوع تحت تأثير شهوات المنافع المادية والزعامات»[2]

فلقد توجه د/ البهي بقصة إبراهيم – عليه السلام – توجهات عقدية، وكانت تغلب عليه فلسفة الأمور، والخروج عن القالب التقليدي في التفسير، وكان نمطه الموضوعي في التفسير النظر إلى

---

[1] محمد البهي، التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، سورة الأنعام، ص٦٥.

[2] محمد البهي، التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، سورة الأنعام، ص٦٥.

السورة أولًا ككل، مستقيًا منها الأفكار العامة والكلية، ثم في ضوئها يفسر السورة من خلال تناولها في شكل مجموعات من الآيات، وفي ظل هذا وذاك يتلمس فيها بينها نقاط التواصل والأهداف الحقيقية فيما وراء مفرداتها وجملها وتراكيبها، والمواقف التي تقصها الآيات.

وننتهي من ذلك إلى أنَّ توجه د/ محمد البهي في تناول السورة، وبالذات قصة سيدنا إبراهيم مختلف عن الشعراوي، وعن غيره كذلك من أرباب التفسير الموضوعي.

وفي تناول الشيخ/ عبد الكريم الخطيب نجده قد ذكر مناسبة الآيات – التي تحكي قصة سيدنا إبراهيم – عليه السلام – في سورة الأنعام – لما قبلها، فما ذهب إليه د/ البهي أشار إلى مثيله الخطيب في تفسيره، وبدا كذلك متأثرًا بابن كثير، فحينما تَحَدَّث كيف توصل إبراهيم – عليه السلام – إلى الله – تعالى – ربط بين مسلكه ومسلك القرآن في الدعوة إلى هذا. يقول: «قد سلك القرآن المنهج نفسه، الذي تعرف به إبراهيم على الله في دعوة المشركين إلى التعرف عليه»[1] وأخذ يستعرض الآيات التي تدل على ذلك من القرآن منتهيًا إلى أنَّ «القرآن المكي يكاد يكون كله معرضًا لآيات الله، ودعوة مثيرة للعقول، مغرية لها بالنظر في ملكوت السماوات والأرض، ولا

[1] عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن، ج٧/ص٢٢٢.

نستشهد لهذا حيث آيات القرآن أكثر من أن تحصى في هذا الأمر...»[1]

وانتهى الخطيب إلى أنَّ المقصود بالإراءة هو الطريق الاستدلالي بالنظر في ملكوت السماوات والأرض، ولذلك فقوله تعالى: «وكذلك نُرِي...أي نفتح نظره وعقله وقلبه على هذا الوجود؛ ليتعرف إلى الله تعالى»[2]

وبعد هذا العرض حول تناول المفسرين القدماء والمحدثين لقصة سيدنا إبراهيم – عليه السلام – على وجه الخصوص قول الله – تعالى – (وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ)[3] يتبين لنا أنَّ هناك تباينًا شديدًا بين شرح قدماء المفسرين للآية وتناول الشعراوي لها، وكذلك هناك اختلاف بين طريقة عرض الشعراوي وطريقة عرض المفسرين المعاصرين كما رأينا.

فلقد عدتُ إلى تناول المفسرين المعاصرين لمعنى الآية، وكيف تعرضوا لها بالتفسير؛ حتى يتسنى لنا رؤية الشكل الموضوعي للشعراوي من بين رؤى هؤلاء المفسرين، وتبين لنا أنه قد سلك كل

---

[1] عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن، ج٧/ص٢٢٣.

[2] عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن، ج٧/ص٢٢٣.

[3] سورة الأنعام، الآية: ٧٥.

مفسر وجهة مختلفة عن الآخر في تناوله – كما رأينا – الموضوعي للآية، فمنهم من أغفلها في جملة شرحه للسورة ككل، ومنهم من تعرض لها بإيجازٍ شديد، ولكنها استوقفت الشعراوي، وكانت مصدر انطلاقه إلى الموضوع الذي أثارت خواطره حولها، وهو موضوع التكاليف الإلهية في حياة إبراهيم عليه السلام، فبسط فيه القول، وبيَّن من خلال تناوله لهذا الموضوع ضرورة التزام المكلفين بالتكاليف الإلهية وعود وفائدة ذلك عليهم.

ولقد عالج تفاصيل هذا الموضوع من خلال ما استجمعه من النص القرآني والسيرة النبوية الشريفة.

ولا بُدَّ من الإشارة إلى مسألة مهمة، ألا وهي أنَّ الرسالة الوعظية والدعوية تتحكم غالبًا في خواطره الشعراوي، ولذا فهو يوظف كل موضوع لخدمة الدين، وهذا من خلال عرضه قريبًا أو مطابقًا لواقع حياة الناس.

ولقد ظهر لنا تميز اللون الموضوعي عند الشعراوي عن غيره من المفسرين، من حيث قدرته على نسج أي موضوع كامل من وحي آية واحدة واردة في القصة القرآنية كما رأينا.

ملخص الفصل:

وخلاصة القول في هذا الفصل أنَّ الشعراوي قد تناول موضوع التكاليف الإلهية في قصة سيدنا إبراهيم – عليه السلام – من خلال

obeikan.com

خواطره التي تناولت سورة الأنعام، وذلك في قول الله تعالى: (وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ)[1]

فلقد عالج الشعراوي في هذا الموضوع الذي استوحاه من هذه الآية – التي كانت مصدر انطلاقه لنسج هذا الموضوع - أنَّ من يلتحم بالمنهج الإلهي منفذًا التكاليف الإلهية، فإنه يفتح لنفسه باب العطاءات الإلهية في عالم الملكوت، واتخذ الشعراوي سيدنا إبراهيم مثلًا على هذا، وذلك من خلال عرض وفائه وامتثاله للأوامر الإلهية من خلال النص القرآني، ثم إظهار الشعراوي لمدى التحامه بمنهج ربه، والتزام تكاليفه بوفاءٍ وصدق، فكانت النتيجة أن أطلعه الله – تعالى – على أسرار الملكوت.

ولقد عالج الشعراوي هذا الموضوع من خلال العناصر الآتية:

(أ) تعريف الشعراوي للملكوت، وتسجيل القرآن التحام إبراهيم – عليه السلام – بالمنهج الإلهي:

ويستهل الشعراوي هذا العنصر بالتفريق بين عالم الملك وعالم الملكوت، فذكر أنَّ عالم الملكوت هو ما يغيب عنا وراء هذا الملك،

---

[1] سورة الأنعام، الآية: ٧٥.

والملك هو ما تشاهده أمامك، واستحضر من النص القرآني شاهدًا على فهم إبراهيم - عليه السلام - لعالم الملكوت؛ ليؤكد به مضمون آية سورة الأنعام، فيشرح ويؤكد فهمه لعالم الملكوت من خلال النص القرآني نفسه، وذلك في ربط موضوعي بينهما.

ثم استحضر الشعراوي ما سجله القرآن الكريم من وفاء إبراهيم - عليه السلام - بتنفيذ التكاليف الإلهية، ومدى عشقه لأدائها طاعةً لله - تعالى - وذلك على مدار أطوار حياته.

ولا يفوت الشعراوي في مثل هذا التناول من محاولته الربط الموضوعي بين موضوع التكليف الإلهي في حياة المكلفين وبين التكليف الإلهي في حياة إبراهيم - عليه السلام - وذلك من خلال حفز جمهوره على ضرورة الالتزام بالتكاليف الإلهية؛ حتى ينعموا بفتوح ذلك عليهم، من حيث الاطلاع على عالم الملكوت، فيرى الشعراوي بأنَّ المُكَلَّف حين يكون مأمونًا على ما عرف من أحكام الله - تعالى - لحركة حياته وينفذها، يعتبره الله - تعالى - أمينًا على أسراره، فيعطيه المزيد من أسرار الملكوت؛ وذلك لأنه قد رقي بتنفيذه التكاليف الإلهية إلى درجة الإطلاع على أسرار الملكوت.

(ب) العلاقة بين تنفيذ المُكَلَّف للتكاليف الإلهية، والاطلاع على عالم الملكوت:

لقد عالج الشعراوي في هذا العنصر أنَّ التحام المكلفين بالمنهج الإلهي عن طريق تنفيذ التكاليف الإلهية، هو الذي يُوهِبُ المُكَلَّف الاطلاع على عالم الملكوت، وحتى يوضح هذا ويبينه، فقد استدل بشواهد على ذلك من السيرة النبوية والنص القرآني الكريم، موضحًا من خلالها كيف أنَّ تنفيذ التكاليف الإلهية قاد إلى الاطلاع على أسرار الملكوت.

(ج) تناول الشعراوي لصبر إبراهيم على مشقة التكاليف الإلهية من خلال النص القرآني:

وفي معالجة هذا العنصر يطالعنا الشعراوي بصور من حياة سيدنا (إبراهيم) عليه السلام؛ ليستدل بها على مدى حرصه على تنفيذ التكاليف الإلهية رغم مشقتها، وذلك سواء في مجال الدعوة إلى الله – تعالى – مع المشركين، أو على المستوى الشخصي، فاستحضر قصة إلقائه في النار، وقصة أمر الله – تعالى – له بذبح ابنه (إسماعيل) عليهما السلام.

فأوضح أنه حينما أُبتُلِيَ إبراهيم – عليه السلام – بالحرق في النار، لم يتنحَّ عن مهمة الدعوة بسبب هذا الابتلاء الشديد، بل صبر وتجلد؛ لأنَّ هذا من تكاليف ومهام الدعوة إلى الله تعالى، ومن المعروف أنه من التكاليف الإلهية الصبر على البلاء، كما أخبرنا

القرآن الكريم من خلال وصية لقمان لولده، وذلك في قوله تعالى: (يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ)[1]

ثم استحضر الشعراوي قصة الذبيح (إسماعيل) عليه السلام، وبَيَّنَ الشعراوي من خلالها كيف تقبل إبراهيم - عليه السلام - هذا التكليف الإلهي بعين الرضا والقبول، ثم بيَّن كيف كانت سياسته حين إبلاغه ولده بهذا الأمر الإلهي، وذلك حتى يعينه على تقبل هذا التكليف بعين الرضا.

ومن خلال هذين الشاهدين يؤكد الشعراوي أنَّ هذا وغيره من مسارعة إبراهيم - عليه السلام - في تنفيذ التكاليف الإلهية بحبٍّ ورضا، هو ما أطلعه على أسرار الملكوت، ثم يتوجه الشعراوي مرةً أخرى إلى جمهوره من وحي هذين الشاهدين؛ ليؤكد لهم أنَّ كل من ينفذ تكاليف ربه بإخلاصٍ وحبٍّ يُوهَبُ الاطلاع على عالم الملكوت، وهذا الربط الموضوعي من الشعراوي لموضوعات القرآن بالواقع الإنساني، يُعد من ملامح التفسير الموضوعي، كما ذكر ذلك محمد باقر الصدر.[2]

---

[1] سورة لقمان، الآية: ١٧.

[2] الإمام/ السيد محمد باقر الصدر، التفسير الموضوعي والفلسفة الاجتماعية في المدرسة القرآنية، انظر ص٢٦.

obeikan.com

ولقد عدت إلى بعض كتب المفسرين القدماء والمعاصرين لأرى أقوالهم في موضوع إراءة إبراهيم - عليه السلام - عالم الملكوت، وكيف عرضوا لهذا المضمون، ولقد ذكرت بعض أقوال مَنْ فسَّر تفسيرًا موضوعيًّا، وذلك حتى يتجلى لنا رؤية الشكل الموضوعي للشعراوي من بين رؤي هؤلاء المفسرين؛ فتبيَّن لي أنه قد اتخذ كل مفسر طريقة مختلفة عن الآخر في تناوله الموضوعي للآية، فمنهم من أغفلها في جملة شرحه للسورة ككل، ومنهم من تناولها بإيجازٍ شديد، بينما استوقفت هذه الآية الشعراوي، فبسط فيها القول - كما رأينا - ونسج من وحيها موضوعًا كاملًا، ولقد ظهر لي تميز اللون الموضوعي في تفسير الشعراوي عن غيره من المفسرين.

●●●

openlkan.com